

حماية التراث المخطوط في الجزائر بين التشريعات القانونية و التشجيعات العلمية

تومي رفيقة

أستاذة مساعدة أ

جامعة المدية

Résumé : Les manuscrits arabo musulmans représentent une part très importante du patrimoine Algérien. Cette richesse patrimoniale reste néanmoins mal connue et nécessite un intérêt particulier. Ce présent article met en exergue les efforts des chercheurs Algériens ainsi que l'arsenal législatif mis en œuvre par l'état Algérien pour préserver ce patrimoine vulnérable.

تملك الجزائر رصيدا كبيرا و قيما من التراث المخطوط الذي تتوّعت أشكاله و مضامينه جعلت منه تحفة فنية رائعة، جلبت إليها إهتمام الباحثين و المتخصّصين. فالمخطوطات هي أحد أهم المصادر التي نتعرّف من خلالها على ذاكرتنا الوطنية و التاريخية و الثقافية، إلا أنها لا تزال حبيسة المكتبات العامة والخزانات الخاصة وبعض متاحفنا الوطنية.

لقد عرفت الأبحاث العلمية و الدراسات في هذا المجال منذ الإستقلال تطوّرا و توسّعا كبيرين، بفضل إهتمام الدولة الجزائرية بهذا التراث المادي الوطني الذي يتعرّض للتلف، و الإندثار، فالضياع بشكل مستمر و ذلك راجع لطبيعته العضوية .

سنحاول في هذا البحث تسليط الضوء على جهود الدولة لإحياء التراث الجزائري المخطوط، و ما سنّته من قوانين، و كذلك مساهمة و جهود الباحثين في هذا المجال العلمي من خلال المنشورات و الفهرسة والتحقيق.

1- تعريف مصطلح "المخطوط" في المصادر التاريخية :

رأينا أنه من المفيد أن نبدأ بحثنا هذا بتعريف دقيق للمخطوط، و تحديد ماهيته من خلال المصادر التاريخية ، فمصطلح " مخطوط " لم يحض باستعمال كبير في معاجم اللغة العربيّة و في القواميس الثرائية، حيث خلت جميعها تقريبا من أيّ تعريف أو أيّ ذكر لها مثل لسان العرب لابن منظور، والصّاح للجوهري، و القاموس المحيط للفيروز آبادي...الخ، فهذا دليل أنّ العرب لم يكن في عصرهم غير الكتاب المخطوط و لم يتعاملوا إلا معه، فقد تكون معرفتهم الشائعة به أغنتهم عن تعريفه.

فعلى سبيل المثال ذكر الزمخشري في لفظ خطّط : " خط الكتاب يخطّه .. وكتاب مخطوط ... " ¹. كما ذكر ابن منظور في نفس اللفظ : " و خطّ القلم أي كتب، و خطّ الشيء يخطّه خطأ: كتبه بقلم أو غيره ... و في حديث معاوية بن الحكم : أنه سأل النبي، صلى الله عليه وسلم، عن الخطّ فقال : كان نبيّ من الأنبياء يخطّ فمن وافق خطّه علم مثل علمه، و في رواية : فمن وافق خطّه فذاك، و الخطّ: الكتابة ونحوها مما يخطّ " ². و يقول محمد مرتضى الزبيدي في كتابه " تاج العروس من جواهر القاموس: " كتاب مخطوط أي مكتوب فيه... " ³. أما لغة هو مُشتق من الفعل خط يخط أي كتب أو صوّر اللفظ بحروف هجائية ⁴.

2 - التراث المخطوط في الجزائر قبل الاستقلال

تعرّضت المخطوطات الموجودة في كل أرجاء الجزائر، سواء العربية منها أو الفارسية أو التركية، إلى عدّة عوامل كانت سببا في اندثارها و إتلافها، أهمها العامل الإستعماري، فقد عمل الإستعمار الفرنسي أثناء احتلاله لها على تطبيق سياسته المُستبدّة في طمس المعالم العربية الإسلامية، من خلال عمليات النهب والحرق المُتعدّدة ⁵ للكتب و هذا حسب ما أشار إليه بيربروجر (Berbrugger) في مؤلّفه : " Algérie historique pittoresque et monumentale " الذي نشره سنة 1843 م، حيث ذكر أنّ الحملات العسكرية الفرنسية دُمّرت الجزء الأكبر من المخطوطات و قضت على أغلبية المدارس ⁶. فهذا التخريب شمل عدّة مدن جزائرية كقسنطينة ⁷، و ورقلة و مدينة الجزائر نفسها ⁸. و تعتبر مصادرة المخطوطات الجزائرية من طرف السُلطات الفرنسية إحدى العوامل المساعدة على إندثارها، و هذا ما فعلته لمكتبة الأمير عبد القادر التي كانت تحوي على 5000 مخطوط عربي ⁹، و بعض كتب الشيخ الحداد و زوايا منطقة القبائل التي ما تزال محفوظة في المكتبات الفرنسية، و نفس المصير عرفته مخطوطات زاوية الشيخ الحسين بسيدي خليفة بولاية ميلة بالشرق الجزائري، حيث أنّ

¹ أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، ص256

² ابن منظور، لسان العرب، جمعه و صححه عبد الله محمد بن المكرم الانتصاري، القاهرة، 1981، مج02، ص1198

³ محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مصر، المطبعة الخيرية، ج9، 1888م، ص40

⁴ بطرس البستاني، محيط المحيط، بيروت، لبنان، 1870، ج1، ص563.

⁵ عبد القادر شرشار، التراث الوطني المخطوط، مجلة التراث العربي، العدد 106، إتحاد الكُتاب العرب، دمشق، 2007، ص107

⁶ Berbrugger, L.A.- Algérie historique pittoresque et monumentale, vol. 3, 4^e partie, p.18

⁷ Laloe, Francis- A propos de l'incendie de la bibliothèque d'Alexandrie par les Arabes : les manuscrits Arabes de Constantine ; In : R.A. vol.66, 1925, p101

⁸ Basset, Renet ; Les Manuscrits arabes des bibliothèques de Zaouias de 'In Madhi' et Tlemcen ; de Ouargla et de 'Adjadja .In : Bulletin de correspondance Africaine, vol. 3, 1885, p241

⁹ Churchill, Charles-Henri. La vie de Abd-el-Kader, Alger, Sned, 1981, p235

رواية الأهالي تتحدث عن 6000 مخطوط كانت تزخر بها الزاوية، لكنّ الإستعمار الفرنسي قد هرب أجودها و أفيدها و أحسنها إلى بلاده¹⁰.

كما ترجع الأوضاع الصعبة لهذا التراث المخطوط إلى جهل مالكي هذا التراث بقيمته، إضافة إلى العوامل الطبيعية التي ساهمت في إتلاف قسم كبير منه ، فالطبيعة العضوية للورق تتأثر بسهولة نتيجة التغيرات المناخية من حرارة و رطوبة، و عوامل بيولوجية مثل الحشرات و الفطريات و الكوارث الطبيعية كالفيضانات، والحرائق، والعواصف، والزلازل...الخ¹¹.

3- التراث المخطوط في الجزائر بعد الاستقلال:

عرفت المخطوطات الجزائرية بعد الإستقلال عملية نهب من طرف مُهربي التحف الفنية، الذين جاءوا من عدة دول أجنبية كأمریکا، لجمعها ثم بيعها بأثمان بخسة جدًا¹². إلا أنّ مجموعات كبيرة منها لا تزال دفينة بعض الخزانات الخاصة و الزوايا ، و التي إستطاع أصحابها جمعها، و من ثمّ التكتّم عليها خيفة إندثارها و تشتتها مرة ثانية، و لأجل ذلك بذلت الدولة الجزائرية خلال السّنّوات الماضية مجهودات معتبرة، من أجل حماية هذا التراث وإعادة ترميمه وتأهيله وحفظه، و محاولة منها لاستدراك ما تبقىّ منه بعد الإستقلال فحاولت الإلمام بكل جوانبه لحمايته من النهب و الإندثار. أما عن التشريعات فلم تصدر نصوص قانونية بالمفهوم الضيق تخص المخطوطات بالذات، فمنذ سنة 1967م إعتمدت الدولة الجزائرية على القانون رقم 67-281 الذي تضمّن مفاهيم عامة حول المعالم و المواقع الأثرية¹³، و لم ينصّ على إجراءات الحماية إلا فيما يتعلق بعملية الترميم ، كأسلوب للتدخل ، و لم يتطرّق إلى حماية مختلف فنون التراث و الصناعات كالمخطوطات.

بينما حظي التراث الأرشيفي المخطوط باهتمام أكثر من قبل الدولة ، ففي سنة 1971م ظهرت البوادر الأولى للإعتناء والتكفل بمجال الأرشيف المخطوط، فقد أصدرت الحكومة الجزائرية الأمر رقم 17 - 36 في شهر جوان 1971 الذي تمّ بموجبه تأسيس مؤسسة الوثائق الوطنية¹⁴، ألحقت فيما بعد بوزارة الثقافة سنة 1983م و ذلك بموجب المرسوم رقم 89/83 ، المؤرّخ في أوّل ربيع الثاني عام

¹⁰ عبد الكريم عوفي، التراث الجزائري المخطوط بين الأمس و اليوم، مركز جمعة الماجد ، مجلة آفاق الثقافة و التراث، السنة السادسة، العدد

20-21، ص ص 115، 116

¹¹ عبد القادر شرشار ،التراث الوطني المخطوط، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 106 ، 2007

¹² Planche, Jean-Louis. -l'incroyable affaires des archives d'Algerie , p.11. In : Les nouvelles litteraires , nov .-dec .1981

¹³ الجريدة الرسمية، الجمهورية الجزائرية رقم 67-281، الصادرة بتاريخ 20 ديسمبر 1967، الجزائر

¹⁴ سالم عبود الألويسي، محمد محجوب كامل، الأرشيف تاريخه أصنافه إدارته، الطبعة الأولى، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1979، ص38

1403هـ الموافق ل 15 يناير 1983م، و أصدر فيما بعد القانون 09/88 و المرسومين 45 و 46 المتضمنين إنشاء مركز الأرشيف الوطني و المديرية العامة للأرشيف الوطني.

و ابتداء من سنة 1991، تم وضع برنامج عمل من قبل مديرية التراث الثقافي بوزارة الثقافة، يهدف إلى وضع خريطة وطنية للمخطوط، تقوم بجرد و فهرسة المخطوطات و كذلك تصنيفها و ترميمها. و لتحقيق ذلك أنشئت فرقة بحث بالمركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ و علم الإنسان والتاريخ و التي إستطاعت أن تتوصّل إلى جرد العديد من المخطوطات بمكتبات ولايات الشمال والهضاب. و زاد الاهتمام بالمخطوطات من طرف الدولة و الباحثين على حد سواء، حيث نظّمت عدة معارض سنة 1997 في كل من ولايتي الجلفة و الجزائر، شاركت فيها زوايا المنطقة و مديريات الثقافة¹⁵. و تهدف تلك المعارض الى تحسيس ملاك المخطوطات و أصحاب الخزانات بقيمة كنزهم المخطوط و المساهمة في ترقية التراث الثقافي الجزائري.

تجسدت فلسفة جديدة للتراث الثقافي المخطوط في الجزائر منذ سنة 1998م، و اتجهت نحو إعادة الاعتبار للذاكرة الثقافية الجزائرية و التكفل بالتراث الثقافي و حمايته، حيث أصدرت وزارة الثقافة القانون 04/98 الذي سمح للمرة الأولى بتنشيت التراث الثقافي في أبعاده المادية و غير المادية، مع الواقع الإقليمي و التاريخي لوطننا. و يقوم بإعادة جرد ممتلكات التراث الثقافي بما فيه المخطوطات .

و فيما بين سنتي 1999م و 2000م، عملت السلطات المعنية بالثقافة على الدفاع عن فكرة تأسيس مركز وطني للمخطوطات و ضمّه إلى المكتبة الوطنية.

كما أخذت الجمعيات الثقافية النشاط في مجال المخطوطات بدءا من سنة 2001م، و شارك فيها العديد من الأساتذة المختصين و الطلبة، من بينها الجمعية الوطنية للمخطوطات و مقرها ولاية معسكر، وجمعية أبي إسحاق إبراهيم أطفيش بوادي ميزاب .

و من التشجيعات العلمية بالجزائر تكوين شبكة لمخابر المخطوطات التابعة لمختلف الجامعات الجزائرية، سميت بـ"شبكة إنقاذ التراث المخطوط"، وتتألف من مخبر المخطوطات الذي مقره قسم علم المكتبات التابع لكلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية بجامعة الجزائر3، ومخبر تحقيق مخطوطات اللغة العربية بجامعة الجزائر، و مخبر مخطوطات شمال إفريقيا بجامعة وهران، و مخبر الحضارة الإسلامية بجامعة قسنطينة، تضم كل تلك المخابر فرقا للبحث العلمي، تمكّنت من إنجاز فهرسة لمخطوطات ولاية أدرار، وإصدار أعداد متتالية لمجلّات خاصّة تضم مقالات هامة، عالجت موضوع المخطوطات في الجزائر بكل جوانبه، منها على سبيل المثال لا الحصر، المجلة المغاربية للمخطوطات التي يقوم بنشرها مخبر المخطوطات لجامعة الجزائر، تحت إشراف مديرها الدكتور مختار حساني و ذلك منذ سنة

¹⁵ علي خلاصي، عن اوضاع المخطوطات في الجزائر، المجلة المغاربية للمخطوطات، العدد1، 2004، الجزائر، ص260

2004م، وتتضمن مقالات علمية كتبها باحثون و أساتذة جزائريون وأجانب مُختصّون في التراث المخطوط، كالأستاذ الدكتور صالح بن قربة و الأستاذ الدكتور عبد المجيد بن نعمة و غيرهم كثيرون.

و من بين المشاريع الهامة المثمرة لوزارة الثقافة ، إنشاء مركز وطني للمخطوطات بأدرار، المُجهّز بالعتاد المتخصّص في حفظ المخطوطات ، هذا حسب مرسوم تنفيذي رقم 10-06 مؤرخ في 15 ذي الحجة عام 1426 الموافق 15 يناير سنة 2006، و يقوم هذا المركز بحفظ المخطوطات بالطرق العلمية الحديثة، و إجراء عملية جرد عام لها وتصنيفها، كما يُشرف على الفهرسة العلمية للمخطوطات و تحقيقها من طرف الباحثين المختصين..الخ.

و في إطار تظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية"2007، نظّم ملتقى بأدرار حول دور المخطوط الجزائري و العربي، وقد تركّزت جُلّ محاضرات الملتقى حول دور المخطوط الجزائري والعربي، وجهود الباحثين في التعريف به، والمسار التاريخي للمخطوط الجزائري وتطوّره، ومن ثمّ المطالبة بإسترجاع المخطوط الضائع والمهزّب.

و لتشجيع البحوث العلمية و الدراسات التراثية أيضا، أُقيمت عدّة دورات تدريبية و تكوينية للباحثين، قصد التكوين في مجال حفظ و صيانة و فهرسة المخطوط، أهمّها : التعاون الجزائري الإماراتي لترميم المخطوطات، الذي نظّمه مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، إذ أُجريت من خلاله دورتين

- الدورة التدريبية الأولى المنظمة في شهر ماي 2009م، اختصت بحفظ ومعالجة وترميم المخطوطات بالمكتبة الوطنية، شارك فيها المركز الوطني للمخطوطات بمدينة أدرار و المكتبة الوطنية.
- الدورة التدريبية الثانية التي نظمتها المكتبة الوطنية بالحامة سنة 2010م، مع مختلف المؤسسات الثقافية كالمتاحف و المكتبات العامة، و بالتنسيق مع خبراء أجانب من عدة دول كإسبانيا ،حيث كان لنا الحظ للمشاركة فيها .

كما بادر قطاع الثقافة في سنة 2010 بتنظيم يوم دراسي بولاية النعامة بعنوان " حفظ وتصنيف التراث التاريخي المخطوط "، و بالتنسيق مع المركز الولائي للأرشيف ومخبر المخطوطات بجامعة وهران.و تمّ إصدار عدّة كُتب خلال هذه السنة في موضوع المخطوطات و فهرستها مثل : كتاب "بيبلوغرافيا تلمسان" ليحي ولد سيدي أحمد، الذي أصدرته "دار المعرفة" الجزائرية، في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية". إلى جانب ذلك إنعقدت عدة ملتقيات وطنية و ندوات علمية ، أهمّها الملتقى الوطني المنعقد في شهر ماي 2011م بمدينة أدرار، و كان محوره " التراث الثقافي المخطوط وعلاقته بالمجتمع الجوّاري"، و الندوة الفكرية حول "الزوايا التواتية و دورها في الحفاظ على المخطوطات"، إذ خُصّصت لمآثر العلامة الراحل سيدي سليمان بن علي بأدرار .

و في سنة 2012 م، زاد الاهتمام بالتراث المخطوط من خلال مختلف النشاطات العلمية المنجزة ، منها الملتقى الدولي الأول حول علم صناعة المخطوط-الواقع و الآفاق، المنعقد يومي 23 و 24 أفريل 2012، و ذلك بجامعة زيان عاشور بالجلفة، تحت إشراف مخبر جمع دراسة وتحقيق مخطوطات المنطقة، تناول الملتقى مجموعة من المحاور كانت أهمها :علم صناعة المخطوط وتطوره في العالم. أما في شهر ماي 2012 نُظّم يومين دراسيين بولاية أدرار بعنوان: جهود الجزائريين في حماية التراث الثقافي المخطوط، الهدف منه توطيد العلاقة بين المركز الوطني للمخطوطات بأدرار و خزائن المخطوطات على مستوى الجنوب الغربي و الشرقي للجزائر.

لقد أسهمت الجزائر منذ استقلالها في إثراء التراث المخطوط ، و ساعدها على ذلك تضافر جهود السلطات المحلية و الباحثين على حد سواء، مما يوحى بظهور بوادر الوعي و التحضر اتجاه هذا الموروث الثقافي، من خلال تنظيم مُلتقيات وطنية و دولية و أيام دراسية، و تشجيع الباحثين على النشر و التحقيق و الفهرسة، و توفير الوسائل الحديثة داخل مؤسساتها الثقافية لحفظها و ترميمها، و كذلك تحسيس أصحاب الخزانات بضرورة التعاون المشترك مع الهيئات المختصة، قصد إخراج الكمّ الهائل للمخطوطات القيمة التي بحوزتهم من ظلمات الخزائن، و محاولة معالجتها و جردها قبل أن تتعرض للتلف و الاندثار، ففقدان هذا النوع من التراث المادي خسارة كبيرة في عصرنا هذا لأنه يحمل في طياته مَقومات شخصيتنا الوطنية .